لمسات من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

د. علي اللافي جولق*

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية ﴿102﴾).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. (سورة النساء، الآية ﴿1﴾.

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58) (سورة الأحزاب، الآية ﴿70-71﴾

أما بعد ..

فإن الإعجاز في القرآن الكريم موضوع مهم ، فهو يمس جانباً مهماً من العقيدة الإسلامية يتصل بإثبات صدق النبوة وألوهية القرآن الكريم ، وللموضوع أهمية أخرى ، إذ تتصل بدراسة الجانب البياني البلاغي في القرآن الكريم ، فهو أهم عناصر الإعجاز في القرآن ، هذه الأسباب هي التي دفعتني لاختيار هذا البحث الذي قسمته إلى تمهيد وثلاثة مباحث .

ففي التمهيد ذكرتُ مفهوم الإعجاز في اللغة وفي الاصطلاح وأشرتُ إلى جملة من الآيات الكريمة التي تُحدِثُ الناس بأن يأتوا بمثل القرآن ومعارضته ووقفتُ عند مفهوم الإعجاز النفسي باعتباره أكثر ألوان الإعجاز اتضاحاً وبروزاً، وفي المبحث الأول درستُ أنواع الإعجاز غير اللغوية، وهي الإعجاز بالأخبار بالغيب، والإعجاز التشريعي والإعجاز العلمي، والإعجاز العددي،

---

* كلية التربية، العجيلات.

والمبحث العددي الثاني تم فيه دراسة الصورة البيانية في القرآن الكريم، ولقد اخترتُ آيات عدة تتضح فيها الصورة التشبيهية، والصورة الاستعارية، وفي المبحث الأخير درستُ فيه صورة من صور الإعجاز وهو الإعجاز النغمي الموسيقي في جملة من الآيات والسور القرآنية الشريفة، وكانت خاتمة البحث إيجازاً لأهم النقاط الإعجازية التي توصلتُ إليها في البحث وبعد ذلك ذكرتُ المصادر التي اعتمدتُ عليها في هذه الدراسة .

التمهيد

العجز لغة الضعف ، وعجز عن الشيء عجزاً فهو عاجز أي ضعيف ومنه جاء في القرآن الكريم حكاية عن ابن آدم حين قتل أخاه

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْ لَهَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿31﴾

(سورة المائدة، الآية (31))، ومعجزة النبي (صلى الله عليه وسلم) ما أُعجز به الخصم عند التحدي ، بمعنى ما أضعف الخصم عند التحدي وأنكسه وغلبه فيما أراد .

ولا يختلف المعنى الاصطلاحي عن اللغوي ، فالمعجزة أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوة النبوة قصد بها إظهار صدق من أدعى أنه رسول من الله ، أو هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة(*).

وقد تحدى القرآن من أنكر كونه كتاباً سماوياً ودعاهم أن يأتوا بمثله في آيات عديدة كقوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍظَهِيرًا ﴿88﴾ (سورة الإسراء، الآية (88)).

وقوله تعالى: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿34﴾ (سورة الطور، الآية (34)). وقوله تعالى:)وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿23﴾فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿24﴾وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).((سورة البقرة، الآية (23-24)).

وقوله تعالى : مْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿13﴾ (سورة هود، الآية ﴿13﴾، وقوله تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا

(*) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار الثقافة العربية، ص 1-6.

بَيِّنَت قَالُوا مَا هَذَا إلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرىً وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿43﴾ (سورة سبأ، الآية ﴿43﴾).

والمعجزة تناسب فنون العصر ، أي فنون عصر الرسالة ، فمعجزة موسى (عليه السلام) كانت العصا بسبب أن فن السحر كان طاغياً وشائعاً في عصره ، ومعجزة عيسى (عليه السلام) هي إبراء الأبرص والأكمه لأن الطب في عصره بلغ ذروته من الازدهار وفي حالات كثيرة يقف عاجزاً عن إبراء أمراض مستعصية عن الشفاء مثل الأكمه والأبرص ، فتأتي المعجزة لتوكيد حقيقة دعوة النبوة ، وكذلك القرآن إذ يتضمن الإشارة إلى معجزات كثيرة سنتحدث عنها في المبحث الأول ، لكن تبقى أو يبقى أهم جانب من جوانب الإعجاز هو الإعجاز اللغوي البياني ، ولقد تحدى القرآن العرب وهم أرباب الفصاحة به فعجزوا مع حرصهم الشديد على ذلك معاداة لهذا الكتاب الذي سفه أحلام العرب لعكوفهم على عبادة آلهة من الحجر والخشب وغير ذلك من ألوان الوثنية والجاهلية (الدسوقي، 180)

الإعجاز النفسي

إن قارئ القرآن أو سامع القرآن تأخذه الهيبة والخشوع أمام آيات القرآن حتى وإن كان لا يؤمن به لما للقرآن من هيبة وسطوة تسحر النفوس والقلوب ، وهذا اللون يسمى بالإعجاز النفسي .

والروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وآياته خطرة وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً ويودون انقطاعه لكراهتهم له قال تعالى:

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْوَ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿23﴾ (سورة الزمر، الآية ﴿23﴾)، لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ (سورة الحشر، الآية (21).)

وهناك حوادث تاريخية تؤكد هذه الحقيقة وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما جاء به في خلاف قومه فتلا عليه قول الله تعالى : حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ ، فعرف عمر تأويلها الى قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴿13﴾) (سورة فصلت، الآية (13)). فأمسك عتبة بيده على فم النبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمداً عليها حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقام عتبة لا يدري بما يراجعه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه

حتى أتوه فاعتذر لهم ، وقال : "لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول" (البيجاوي، 242)

المبحث الأول:أنواع الإعجاز في القرآن الكريم

الإعجاز بالإخبار عن الغيب

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيبات) وذلك برهان ساطع ، ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر ، وإنما هو كلام علاّم الغيوب الذي لا تخفي عليه خافية ولو كان من صنع محمد – كما زعموا – لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية بوقوعها على خلاف ما أخبر ولافتضح أمره بالكذب الصريح ، وحاشاه (صلى الله عليه وسلم) من الكذب على الله .

فمن هذه الأخبار الغيبية إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد أن انكسروا في الحرب السابقة وذلك في قوله تعالى : الم ﴿1﴾غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿2﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿3﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿4﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿5﴾ (سورة الروم، الآية (1-5)).

فنزلت الآية الكريمة تبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس في مدة وجيزة تتراوح بين بضع سنين ، لأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة ، فلما نزلت الآية الكريمة راهن أبو بكر بعض المشركين وهو (أمية بن خلف) على مائة ناقة إلى تسع سنين، ولم تمض المدة حتى وقعت الحرب بين الفرس والروم فانتصر فيها الروم وتحققت نبوة القرآن وذلك سنة 622 ميلادية الموافقة للسنة الثانية من الهجرة النبوية و انتصر المسلمون يومها في بدر، وكسب أبو بكر الرهان فأمره الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالتصدق به.

يقول الزمخشري : (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وإن القرآن من عند الله لأنها أنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله) .

التنبؤ بدخول الرسول وأصحابه مكة آمنين مطمئنين (البيجاوي،239)

روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم ، وقالوا : " إن رؤيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حق ، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محرمين يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حرباً وإنما يقصدون العمرة والنسك ، ولكن قريشاً صدتهم وكادت تقع الحرب بين

المسلمين والمشركين لولا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رضي معهم بالصلح إيثاراً منه للسلم وحباً للسلام العام ، وكان من شروط ذلك الصلح أن يرجع الرسول ومن معه في ذلك العام على أن يدخلوا مكة في العام القادم ، واتخذ المنافقون ضعفاء الإيمان من ذلك سبيلاً إلى الطعن والدس واللمز حتى قال رئيس المنافقين (عبد الله بن أُبيّ) : "والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة وهي (دخول مكة، وأداء النسك، والأمن من قريش) ، على رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام ، وقد أنجز الله وعده في الأمر ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين . وفي قوله تعالى: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿27﴾ (سورة الفتح، الآية (27)).

تنبؤ القرآن بانهزام المشركين قبل وقوع الحرب وذلك في قوله تعالى في سورة القمر: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿45﴾ (سورة القمر، الآية (45))، قال عمر بن الخطاب أيّ جمع هذا الذي سيهزم ؟ فلما كانت غزوة بدر رأى الرسول (ρ) وهو يثب في الدرع ويقول : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ فعرف عمر تأويلها .

تنبؤ القرآن بذلك المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش وذلك في قوله تعالى في سورة الدخان: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ ﴿10﴾ يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (﴿11﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿12﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رسول مُبِينٌ ﴿13﴾ ثُمَّ تَولوا عَنْهُ وَقالوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿14﴾ إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ ﴿15﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿16﴾ (سورة الدخان، الآية (10-16)).

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة أن أهل مكة لما كذبوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واستعصوا وتمردوا عليه، دعا عليهم فقال : اللهو أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف فأدخلهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه (أبو سفيان) هلكوا فادعوا الله لهم فأنزل الله هذه الآيات الكريمة .

التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان وذلك في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾ (سورة الصف، الآية (9))، وكذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (سورة النور، الآية (55)).

وكل هذه – وأمثالها في القرآن كثير– إخبار عن المستقبل وقد تحققت جميعها، وهذا أمر خارق للعادة، فكان وجهاً من وجوه الإعجاز أن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله جلّ وعلا، ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء بها القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي الذي أطّلع الله رسوله الكريم عليه ، وما كان له علم بها ولهذا ذكر الله عز وجلَّ ثناؤه قصة نوح ثم أعقبها هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَلِلْمُتَّقِينَ ﴿49﴾ (سورة هود، الآية (49)).

الإعجاز التشريعي

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر في القديم والحديث ، فالقرآن الكريم هو الذي وضّح أصول العقائد وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي والمدني والاجتماعي، وهو الذي نظم حياة الأسرة والمجتمع، ووضع أعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة، الحرية، العدالة، التي يسمونها الديمقراطية الشورى) إلى غيرها من أسس الحضارة والتشريع الذي تسعى إليها المدنية الحديثة.

ففي العقائد دعا القرآن الكريم إلى عقيدة طاهرة سامية ، واضحة جلّية، عمادها الإيمان بالله عز وجلّ والتصديق بجميع أنبيائه ورسله ، والإيمان بجميع الكتب السماوية مصداقاً لقوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (سورة البقرة، الآية (285)).

ودعا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلى كلمة سواء ، لا انحراف فيها ولا التواء ، قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿64﴾ (سورة آل عمران، الآية (64)).

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائمها، فشرّع الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وسائر أعمال البرّ والطاعة، وليست العبادة في الإسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان، بل هي تشمل كل عمل خير، وفعل بر أو طاعة، ولهذا فإن العلماء قرروا أن كل عمل يقصد به

الإنسان وجه الله يكون عبادة وقالوا: (أن النية الصالحة تقلب العادة إلى عبادة)، فإذا عمل الإنسان واحترف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام والإنفاق على أهله وعياله، وإذا أكل أو شرب بقصد التقوى على طاعة الله كان عمله عبادة يثاب عليها ، والأصل في هذا قول النبي الكريم (وإنك لن تنفق تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك) الحديث.

وقوله (ﷺ): (وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام لكان عليها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر) وإذا أمعنا النظر في أصول العبادات المفروضة نجد أن الإسلام قد وسّعها ونوّعها، وجعلها ضروباً متفاوتة، فمنها ما هو (عبادة مالية) كالزكاة والصدقات، ومنها ما هو (عبادة بدنية) كالصلاة والصيام، ومنها ما هو يجمع بين الأمرين (عبادة مالية وبدنية) كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال والنفس، وهذا التنوع له مغزاه وحكمته السامية وذلك لئلا تألف النفس شيئاً فتصبح لها عادة أو تملّ وتضجر من العبادة الواحدة .

وفي مجال (التشريع العام) نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، والجنائي، والسياسي، والاقتصادي ، ووضع أسس للتعامل الدّولي في حالة السلم والحرب على أكمل وجه وأعدل نظام، ففي أمر المعاملات حرّم القرآن أكل أموال الناس بالباطل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ۚ وَلَاتَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿29﴾ (سورة النساء، الآية (29))، ودعا إلى الإشهاد عند إبرام البيع وبكتابة الدين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً (سورة البقرة (282)).

وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود ، وأوجب على الأمة تنفيذها من أجل حماية المجتمع وصيانته من الفوضى والاضطراب وتأمن الأمة على حياتها ومستقبلها ، وأموالها وأعراضها لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق (الأمن والاستقرار) .

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطراً على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة ولا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك الجرائم من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفّذ فيها ما يراه من العقوبة، وعلى

ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس ، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية .

أما الجرائم الكبيرة التي عيّن لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمس: (جريمة القتل، جريمة الزنا ، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف)، ولعل أروع مثل للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية، حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، فملكوا الدنيا وسادوا العالم .

الإعجاز العلمي

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية، التي سبق إليها القرآن قبل أن يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكتشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جلّ شأنه: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿53﴾ (سورة فصلت، الآية (53)).

والقرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء ، وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد) وكتاب (تشريع وإصلاح) ، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإرشادات الدقيقة والحقائق الخفية إلى بعض المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية ، مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله ، فمن المقطوع به أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وأنه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة ، حيث لم تكن علوماً ولا معارفاً ولا مدارساً تُقرأ فيها العلوم الكونية ، لأن قومه وعشيرته كانوا (أميين) ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره ، ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب ، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد – كما يزعم بعض المستشرقين إنما هو وحي من الله ، أنزله على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين .

إن القرآن الكريم في طريقة عرضه الهداية والإعجاز على الخلق ، قد حاكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض وبر وبحر ، وحيوان ونبات، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن ، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها، الخبير بدقائقها، المحيط

بعلومها ومعارفها ، في حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أُمي نشأ في أمة جاهلة، ولا صلة له بتلك العلوم وتدوينها ولا إلمام بكتبها ومباحثها ، بل أن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ، قال سبحانه وتعالى مقرراً لهذا الإعجاز العلمي:

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿48﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿49﴾ (سورة العنكبوت، الآية (48-49)).

ومن الآيات التي تشير إلى حقيقة علمية كونية أثبتها علم الفلك المعاصر وهي كروية الأرض كقوله تعالى: خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْض بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) (سورة الزمر، الآية (5))، وقوله تعالى: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿30﴾ (سورة النازعات، الآية (30)).

وقوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿61﴾ (سورة الحج، الآية (61) ، وقوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿125﴾ (سورة الأنعام، الآية (125))، فهذه الآية تؤكد وتشير إلى اختلاف الضغط الجوي .

ومن الآيات ذات الإعجاز العلمي الآيات التي تشير إلى تطور الجنين (الدسوقي،191-192)، داخل رحم أمه ومروره بسلسلة من أطوار الجنينية كقوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿13﴾ (سورة المؤمنون، الآية (13)).

وقوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿8﴾ (سورة الرعد، الآية (8))، وقوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿4﴾ (سورة النحل، الآية (4)).

وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن

بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿5﴾ (سورة الحج، الآية (5)).

والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه ، ولا يزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون ، لا يزال كل أولئك يشرح القرآن ويفسره ، ويوضحه من نواحٍ كثيرة من أسراره وإعجازه مصداقاً لقوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) (سورة فصلت، الآية (53))،

وقوله تعالى :
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ **مِنْ** تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿21﴾ (سورة يوسف، الآية (21)).

الإعجاز العددي

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود كل لفظة به كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها ، بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله ، لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب ، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق (السامرائي، 12).

لقد تبين أن (الدنيا) تكررت في القرآن الكريم بقدر (الآخرة) فقد تكرر كل منهما (115) مرة، وأن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكرر كل منهما (88) مرة، وأن الموت ومشتقاته بقدر الحياة فقد تكرر كل منهما (145) مرة وهل الموت إلا للأحياء؟

وإن الصيف والحر تكرر بقدر لفظ الشتاء والبرد، فقد تكرر كل منهما خمس مرات، وإن لفظ السيئات ومشتقاتها تكرر بقدر لفظ الصالحات ومشتقاتها، فقد تكرر كل منهما (168) مرة (السامرائي، 13).

وإن لفظ الكفر تكرر بقدر لفظ الإيمان، فقد تكرر كل منهما 17 مرة، وتكرر لفظ كفراً بقدر لفظ إيماناً، فقد تكرر كل منهما 8 مرات، وإنه تكرر ذكر إبليس بقدر لفظ الاستعاذة، فقد تكرر كل منهما 11 مرة، وإن ذكر الكافرين تكرر بنفس عدد النار وهل النار إلا للكافرين، وإن ذكر الحرب تكرر بعدد الأسرى وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب؟

وإن لفظ قالوا تكرر (332) مرة، ومن العجب أن يتساوى هذا مع لفظ قل الذي هو أمر من الله إلى خلقه سبحانه من قال قل (332) مرة فكان القول (332) مرة، وإن لفظ الشهر تكرر 12 مرة بعدد شهور السنة كقوله تعالى:

انَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوانَّ اللَّهَ مع الْمُتَّقِينَ﴿36﴾ (سورة التوبة، الآية (36).

وإن لفظ اليوم تكرر (365) مرة بعدد أيام السنة ، وإن لفظ الأيام تكرر 30 مرة بعدد أيام الشهر (السامرائي، 14).

المبحث الثاني: الصورة في القرآن

تمايز القرآن عن غيره من أساليب اللغة عند العرب ، ليس هو مما متاح لهم وإن كانت أدواته شائعة عندهم من قدرة التعبير وقوة اللغة بيد أن ما اشتمل عليه القرآن منها تعجز عنه قرائحهم رغم كونهم أهل صناعة الكلام كان شعراً أو نثراً.

والصورة كأحد ما برع فيه العرب من فنون القول ، فقد كثرت التعاريف في تحديد مفهومها وماهيتها غير أنها على كثرتها تلك تتحدد أنها وسيلة الحواس والشعور، أو هي إعطاء الفكرة المجردة شكلاً محسوساً (البستاني،1986، 10)، ومعنى ذلك أنها وسيلة للمتكلم لإيصال المعنى للقاري أو المتلقي وتكون البلاغة بما تحويه من استعارة ومجاز هي أفضل تلك الوسائل (البستاني،1986، 11)، فإن علماء البلاغة العرب يذهبون إلى أن البلاغة ما هي إلا وسيلة إلى إيضاح المعنى عن طريق ما نملكه من عنصر التصوير بما تحويه من تشبيه واستعارة ومجاز .

وفي عناصر البيان تلك يركز عبد القاهر الجرجاني إذ أنه يرى أن المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية على أنها عمل الإعجاز وأركانه والأقطاب التي تدور البلاغة عليه ، وعنها يقول : لم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز إلا ذكرها وجعلها العمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية وخصوصاً الاستعارة والمجاز (عتيق، 1986، 23).

وما كان للقرآن ذلك التأثير في أنفس سامعيه إلا لما كان له من وجوه الإعجاز ، والتي كان أكثرها أثراً وأولها ابتداءً ذلك الأسلوب البياني وما يتضمنه من تصوير بكل أدواته من تشبيه ومجاز عجزت العرب على مجاراته والإتيان بمثله .

نقدم من ما تضمنه القرآن من عناصر التصوير والبيان أمثلة لبعض نواحي التصوير البياني في القرآن :

أولاً: التشبيه

قوله تعالى:

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿15﴾ (سورة الرعد، الآية (15))

فالآية الكريمة تتحدث في شأن عباد الأوثان الذين يتخذون آلهة غير الله وتصفهم بأنهم إذا دعوا آلهتهم لا يستجيبون لهم ، ولا يعود عليهم دعاؤهم بفائدة ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يقرر هذه الحال ويثبتها في الأذهان فشبه هؤلاء الوثنيين بمن يبسط كفيه إلى الماء ليشرب فلا يصل الماء فمه بداهة ، لأنه يخرج من خلال أصابعه ما دامت كفاه مبسوطتين ، فالغرض من التشبيه هنا تقرير حال المشبه (عتيق، 1986، 108)

قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿5﴾ (سورة الجمعة، الآية (5))، فالتشبيه مركب من أحوال الحمار وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استطحابه .

وقوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰإِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَاحَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿24﴾ (سورة يونس، الآية (24))، فإن فيه عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه ، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض (الصالح،1996، 328)

ثانياً: في الاستعارة

من ذلك قوله تعالى:

الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿1﴾ (سورة إبراهيم، الآية (1)).

ففي الآيات الكريمة مجازات لغويات في كلمتي الظلمات والنور ، قُصد بالأولى الظلال ، والثانية الهُدى والإيمان ، فقد استعير الظلمات للظلال لعلاقة المشابهة بينهما في عدم اهتداء صاحبها ، كذلك استعير النور للهدى والإيمان لعلاقة المشابهة بينهما في الهداية والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي في كلا المجازين قرينة حالية تفهم من سياق الكلام (البستاني، 1986، 10 وما بعدها)

وقوله تعالى: (سورة الأنبياء، الآية (18) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿18﴾)، فالقذف والدمغ مستعاران وهما محسوسان ، والحق والباطل مستعار لها وهما معقولان ، ففي الآية تم تصوير الحق بالقذيفة الثقيلة وذلك تجسيم ، وفيه تشخيص، ففي دمغ الحق للباطل وإزهاقه إياه ، وفيها تخيل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدثه حركة القذف ثم الدمغ ثم الإزهاق ، فإنها أصوات شداد توشك أن تكون صدى لعظام الباطل وهي تتحطم وتتقعقع (عتيق، 1986، 776).

ثالثاً: المجاز

قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿36﴾ (سورة غافر، الآية (36))، ففي إسناد بناء الصرح إلى هامان وزير فرعون مجاز عقلي علاقته السببية لأن هامان لم يبن الصرح بنفسه وإنما بناه عماله ، ولكن لما كان هامان سبباً في البناء أسند الفعل إليه (عتيق، ص147-148).

ومن الإعجاز اللغوي إطلاق اسم الكل على الجزء نحو قوله تعالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿19﴾ (سورة البقرة، الآية (19))، أي أن ملهم ونكتة التعبير هنا بالأصابع الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار ، وفي ذلك تصوير لحالتهم النفسية وما أصابهم من الذعر والهلع وهم يولون هاربين (الصالح، 329)

المبحث الثالث: الإعجاز في نغم القرآن

إن هذا القرآن في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة ، وفي كل مشهد منه وقصة ، وفي كل مطلع منه وختام ، يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى مملوء نغماً، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب المفاضلة فيه بين سورة وأخرى، أو الموازنة بين مقطع ومقطع ، وتفرد سورة منه بنسق خاص إنما هي ظاهرة أسلوبية بارزة تناسب جو السورة، فالقرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوع موسيقى في أنغامه وألحانه (الصالح،334)

وإن هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقل بجرسها ونغمها بتصوير لوحة كاملة يكون فيها اللون زاهياً أو شاحباً ، ويكون فيها الظل شفيفاً أو كثيفا (الصالح، 324).

وقد نرى لوناً أزهى من نظرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله ، ولوناً أشد تجهماً من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى:} وُجُوهٌ يوْمئِذٍ ناضِرةٌ (22) إلى ربها ناظِرةٌ (23) ووُجُوهٌ يوْمئِذٍ باسِرةٌ (24) تظُنُّ أنْ يُفْعل بها فاقِرةٌ (25). (سورة القيامة، الآية (22-25)).

لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة " ناظرة " بتصوير أزهى لون وأبهاه، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة باسرة برسم أمقت لون .

إن السامع لصوت السين المكررة يستشف رقة جرسها ويستريح إلى خفة وقعها في قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿15﴾ الجوارِ الْكُنَّسِ ﴿16﴾ وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ ﴿17﴾ وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ ﴿18﴾. (سورة التكوير، الآية (15-18)).

بينما تقع الرهبة في صدره حين يسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة " تحيد " بدلاً من " تنحرف " أو " تبتعد " في قوله تعالى: وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿19﴾ (سورة ق، الآية (19))، وفي قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿185﴾ (سورة آل عمران، الآية (185)).

فلا يوجد في المعجم غير كلمة " زحزح " تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار وبسمعه ويكاد يصلاه (الصالح، 334).

ويأخذ قارئ القرآن من الغيظ مثلُ ما يأخذ جهنم حين تسمع لفظ " تميز " من قوله تعالى: تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿8﴾ (سورة الملك، الآية (8)).

ويستولي عليه القلق وهو يكرر هاء السكت في أكثر فواصل سورة الحاقة ، فينسى وهو يتلو قوله تعالى : قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿4﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿5﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿6﴾. (سورة الحاقة، الآية (28-29))،

وقاري أو سامع القرآن يستشعر عنف لفظة الكبكبة في قوله تعالى: فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿94﴾ (سورة الشعراء، الآية (94)). فيتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم أو على مناخيرهم ، ويلقون إلقاء المهملين فلا يقيم أحد لهم وزناً .

فإن يكُ هذا كله في اللفظة المفردة تعتبر مستقلة عن لوحة كاملة ، فكيف الآية التي تتناسق في جوها الكلمات أو في السورة يسري فيها كلها في فواصلها ومقاطعها وفي ألفاظها وحروفها وفي انسياقها حتى لو انتقى على حدة مقطع واحد من مقاطعها ، أو موضوع واحد من موضوعاتها الجزئية ، والتمس في أجزائه النغم والإيقاع لكان في كل جزء منه نغمة ، وفي كل حرف منه لحن من ألحان السماء .

وعلى هذا الأساس من انفراد القرآن بحفاظه على تناسقه الإيقاعي سواء أحلّت على تعاقب سورة واحدة كاملة أم اقتطعت بغير عمد بعض أجزائه ، وإذا تذكرنا أن ابتهال الصالحين كثير في القرآن رغباً أو رهباً طمعاً أو خوفاً استعجالاً لخيرأو دفعاً لشر (الصالح، 221)، أدركنا من أسرار التنغيم ينبعث من كل مقطع في كتاب الله

ومن سحر القرآن أن النغم الصاعد فيه خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة ، وينشي في كل لحن مرتعاً للخيال فسيحاً فنتصور مثلاً – ونحن نرتل دعاء زكرياء– شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة وشعاع من نور، ونتمثل هذا الشيخ الجليل – على وقاره – متأجج العاطفة ، متهيج الصوت ، طويل النفس، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير، بل أن زكرياء في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأساه خوفاً من انقطاع عقبه، وهو قائم يصلي في المحراب لا يني ينادي اسم ربه نداءاً خفياً، ويكرر اسم ربه بكرة وعشياً ويقول: في لوعة الإنسان المحروم وفي إيمان الصديق الصفي: {قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿4﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ

امْرَأَتِي عاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿5﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿6﴾ (سورة مريم، الآية (4-6)).

وإن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بياياتها المشددة وتنوينها المحوّل عند الوقف ألفاً لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق، فهذه الألف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها (شقياً – ولياً – رضياً) مع عبد الله زكرياء ينادي ربه نداءاً خفياً (الصالح، 338 – الكواز، 327).

في هذه الخاتمة أذكر أهم ما توصل إليه البحث:

1- أتضح في البحث أن مفهوم الإعجاز في اللغة هو الضعف ولا يختلف المعنى الاصطلاحي له عن المعنى اللغوي كثيراً ، فالمعجزة في الاصطلاح أمر خارق للعادة مقرون بدعوى التحدي بقصد إظهار صدق من أدعى النبوة ، وهو أمر سالم من المعارضة .

2- تضمن القرآن الكريم في آيات كثيرة أخباراً عن حوادث مستقبلية بشرٍ أو بخير ووافق الواقع وصدق في ذلك انتصار الروم على الفرس ونصر المسلمين على المشركين في بدر.

3- القرآن الكريم أسس مجتمعاً يتسم بالسعادة والانسجام ويضمن العدالة الاجتماعية بين الأفراد من خلال آيات الأحكام التي تؤسس لقوانين وشرائع عاملة بين الناس وهذا الأمر يؤكد إعجازه التشريعي .

4- حث القرآن على العلم وأعلى من شأن المعرفة فهو كتاب هداية ، وحث الناس على التأمل في الآفاق (الكون) وفي أنفسهم للوصول إلى حكمة الخالق وعظمته، وهناك آيات كثيرة تضمنت حقائق علمية توصل إليها العلم الحديث بعد قرون من الزمن منها : نشأة الجنين ، وكروية الأرض وهذا يؤكد إعجاز القرآن .

5- الكثير من ألفاظ القرآن ترد وتتكرر بنحو إعجازي مقصود .

6- تميز القرآن بإعطاء الفكرة المجردة شكلاً محسوساً في استعماله للصورة الفنية البلاغية على اختلاف أنواعها من مجاز وتشبيه واستعارة .

7- تميز القرآن بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى فهو مملوء نغماً في كل مطلع سورة أو ختامها بما يؤكد تفرد أسلوب القرآن وتميزه وإعجازه .

المراجع

1- القرآن الكريم برواية قالون عن نافع .

2- الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط 1، دار الوطنية بنغازي ليبيا .

3- التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمار، الأردن .

4- الصورة الشعرية في الكتابة الفنية الأصول والفروع، د. صبحي البستاني، ط1 ، 1986 م، دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان .

5- في تاريخ القرآن وعلومه، د. محمد الدسوقي، ط1، طرابلس ليبيا .

6- في علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ط3 ، 1986م، بيروت لبنان .

7- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ط19، 1996م، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان .

8- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار الثقافة العربية .